**الأدب الأندلسي /المرحلة الثّالثة" / أستاذ المادة/ أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**الدِّراسة المسائيَّة/ العام الدّراسي 1436 ـ 1437هـ / ــ2015 ـ2016م**

**المحاضرة الرَّابعة عشرة :**

**النَّثر الفني موضوعاته وخصائصه في القرن الخامس الهجري**

حين ندرس النَّثر في القرن الخامس للهجرة فإننا نقف أمام نتاج أدبي ضخم ، فقد قطعت الأندلس شوطاً كبيراً في ميدان الأدب ، وجابت مساحة الأدب بشطريه شعراً ونثرا ، وأبرز هؤلاء الأعلام الّذين وصلت آثارهم النَّثرية :

ابن زيدون ( ت 436 هــ) ، وابن اللبانة ( ت 507 هـ ) ، وابن عبدون ( ت 520 هـ ) ، وابن خاقان ( ت 529 هـ ) وابن خفاجة ( ت 533 هـ ) ، وأبو عبد الله ابن أبي الخصال ( ت 540 هـ ) ، وابن بسَّام ( ت 542 هـ ) صاحب الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، الذي يشير فيما ينقله لنا الكلاعي إلى أشهر الكُتّاب في عصره بقوله : " كتّاب العصر ورؤساء الأعيان أربعة : كلاعيان ، وفهريان ، وأما الكلاعيان ، فأبو بكر بن القصير ، وأبو محمد بن عبد الغفور ، وأما الفهريان ، فأبو القاسم بن الجدّ ، وأبو محمَّد بن عبدون " .

وقد باهى ابن سعيد في نفح الطّيب ، وهو في مقام المنافرة بين الأندلس والمغرب بجهود الأندلسيين في مجال النَّثر ، فأشار إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال وكتابه **سراج الأدب** صنّفه على طريقة **النَّوادر للقالي ، وزهر الآداب** **للحصري** ونوّه بأبيه ، وكتاب **أبي عبيد البكري** **اللآلي ،** وهو على منزع **آمالي القالي** ونوّه **بجهود ابن السّيِّد البطليوسي في كتابيه الاقتضاب** ، **وشرح سقط الزند** ، وأشار أخيراً إلى **شروح الأعلم الشمنتري لشعر المتنبي ، والحماسة .**

ونستطيع أن نستدل على شيوع هذا الفن وولع الكُتّاب به ، وتعلقهم بألوانه المستحسنة من النَّثر المشرقي، ما حدّثنا به ابن عبد الغفور الكلاعي ( ت 550 هـ ) في كتابه **احكام صنعة الكلام** ، وهو أوسع كتاب يمثِّل عصر المرابطين في موضوع النَّثر ، ومؤلفه أديب بارع كان أبوه وجدّه ناثِرَين كبيرَين ، وشاعرَين مُجِيدَين ترجمت له كتب التراجم . وقد أتُهم بأنه لا يعرف كيف يكتب السُّلطانيات ، إنّ تلك التهمة حملت الكلاعي على تأليف كتاب على مثال **السجع السلطاني** **لأبي العلاء المعري .**

**أما ابن أبي الخصال** فقد أُعجب بآثار أبي العلاء ، فعارض لزومياته في ملقى السبيل كذلك فعل **أبو الطاهر محمد السَّرقسطي** المعروف **بابن الأشتروكويني** ( ت 438 هـ ) في مقاماته التي بناها على لزوم ما لايلزم وسمّاها **المقامات اللزومية** وهي خمسون مقامة عارض بها **الحريري.**

وتحدّث الكلاعي عن الترجيح بين المنظوم والمنثور ، وفضّل النثر على الشعر على الرغم من أنه لم ينكر فضائل الشعر ، لكن سوء استخدامه هو الذي جعله ينظر إليه هذه النظرة .

وفكرة تفضيل النَّثر على الشِّعر عند غيره من كتّاب عصر الطوائف ، ومنهم : **ابن شُهيد الأندلسي في رسالته التَّوابع والزَّوابع** ، إذ قال : إنّهم أولى بالتقديم من الشعراء .

ومن الكتب المتخصصة في نثر عصر الطوائف التي سبقت الكلاعي في أحكامه **كتاب تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات / لأبي عبد الله الحميدي** ( ت 488 هـ ) ألفه سنة 454 هـ ، وهو أضخم كتاب في نماذج النثر الأندلسي لكاتب في عصر الطوائف ، وجميع رسائله تدخل في باب الأخوانيات ، فقد وعد أن يؤلف كتاباً آخر في رسائل السلطانيات .

وقد جعل الكتاب في ثمانية أبواب تفاوتت فصولها بحسب موضوعات كل باب كثرة وقلة ، وهي على النحو الآتي :

1 ـ في مثالات أدعية الأوقات ، وهو في 16 فصلاً .

2 ـ في أمثلة اللقاء ، وتصنيف أهله في الدعاء ، وهو في 10 فصول .

3 ـ في شذور التهنئة بأحوال السرور ، وهو في 40 فصلاً .

4 ـ فيما يجري مجرى تسلية المحزون ، وهو في 7 فصول .

5 ـ فيما يقال عند إرادة الأفعال ، وهو في 6 فصول .

6 ـ في أسباب الوداد ، ونتائج حسن الاعتقاد ، وهو في 16 فصلاً .

7 ـ في أمثلة أصناف التعزية ، وهو في 7 فصول .

8 ـ في مفردات نوادر المخاطبات ، وهو في 7 فصول .

إن الرَّسائل التي صُنفت في عصر الطوائف والمرابطين تنوعت موضوعاتها ، فقد تناولت السِّياسة والمجتمع والفرد والجماعة ، فكانت هناك الرَّسائل الدِّينية ، والرَّسائل الاجتماعية ، والرَّسائل الأخوية ، والرَّسائل الديوانية ، والرَّسائل الوصفية ، وقد تناولت أنماطاً من النَّثر القصصي والمقامات .

وقد طبعت الرَّسائل في هذا العصر بطابع ديني ، وأن الرَّسائل الدينية ليست إلا جزءاً من مجمل تلك الرَّسائل ، وذلك أمر طبيعي يتسق مع طبيعة الحياة التي كانت تعنى بتلك القيم ، وان صلة المجتمع كانت قوية بها .

أما **الرَّسائل الأخوية الكثيرة**  : فهي تعكس لنا العلاقات بين الأصدقاء والاصحاب من الأدباء في أحوالهم المختلفة ، وتعتمد هذه الرسائل على أسلوب الهزل والمداعبة لدفع السأم عن النفس والترويح عنها .

**والرَّسائل الدِّيوانية :** سجَّلت هذه الرَّسائل أحوال السِّياسة وطبيعة المشكلات التي تعترضهم ، والأساليب المتبعة في معالجة تلك المشكلات وحلِّها .

**والرَّسائل الوصفية :** ثمرة من منسجمة مع طبيعة البيئة الأندلسية ، والمجتمع الأندلسي ، وتفاعل الأديب معهما ، إذ عكس لنا صورة متألقة لا تقلّ عن دور الشعر في هذا المقام .

وقد عالج **النَّثر القصصي** أموراً خيالية ، وأخرى واقعية عبّرت عن المجتمع الأندلسي في جوانبه المختلفة ، وقد جنحت في أساليبها إلى الفكاهة والسُّخرية .

واستطاعت تلك الرَّسائل أن تُعطينا صورة واضحة متكاملة السِّمات عن الشَّخصية الأندلسية التي اختلفت عن قرينتها المشرقية بحكم اختلاف البيئة ، واختلاف عناصر المجتمع الأندلسي ، وطبيعة مشكلاته الاجتماعية والسِّياسية ، ومن هنا فإن النظرة المتأنية تهدينا إلى القول بأنه على الرغم من كون جذور الثقافتين المشرقية والأندلسية واحدة ، فإن النثر الأندلسي شأنه شأن الشعر والفنون الأخرى استطاع أن يكوّن شخصيته من خلال ظروف الجزيرة الأندلسية بعناصرها المختلفة سياسية واجتماعية وثقافية ، وكان النصيب الأكبر يعود إلى تلك البيئة ، ولذلك النسيج المتنوع من عناصر المجتمع .

أما مشكلة الخطابة فهي الضياع أو الانشغال عنها بموضوعات الرسائل ، وربما لأنهم لم يعنوا بتذوق هذا النوع من النثر ؛ لشيوعه فيهم ، ويمكن أن يستفاد من هذا المعنى في تعليل الجاحظ ؛ لضياع كثير من أدب العرب شعره ونثره : " وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه الإلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همّه إلى الكلام ، فلم يحفظ إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، وإن شيئاً من هذا الذي في أيدينا جزء منه بالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب ... " .

ومشكلة الخطابة الأخرى أيّاً كان نوعها أنها نصّ ليس للقراءة ، ولهذا أفلتت من سجل التاريخ ملايين الخطب ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير لأسباب خاصة .

**ومن خصائص الأساليب النَثرية في عصر الطَّوائف :**

ازدياد ظاهرة المزج بين الشعر والنثر ، مما يستدل معه أن الكتّاب كانوا بعامّة شعراء ، أو أنهم جمعوا رياستي الشعر والنثر على نحو ما يقول أحمد أمين : " وكثير من الأدباء كان يجمع بين النثر والشعر ، وكان عند الأدباء ملكة لطيفة يميزوا بها بين الموضوعات التي تصلح للنثر ، فهم يشعرون حين تهيم عواطفهم ، ويحسّون أنهم في حاجة إلى تعبير وجداني يغذيها ، ويلجؤون إلى النثر عندما يكون الموضوع أميل إلى العقل "

**ولعل من أبرز خصائص النثر من حيث الشكل والمضمون مايأتي :**

1 ـ **من حيث الشكل :**

ميلها إلى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة ، وقدّم جملة من الاحتمالات هي :

أ ـ ربما لأنهم مالوا إلى نوع من التخصص كما حصل لأبي حفص بن برد في فصول الحمد ، وبعض الرسائل الدينية الأخرى .

ب ـ إن الرسائل حذفت مقدماتها للاختصار .

ج ـ إن هذا النهج أميل إلى البساطة ، والبعد عن التعقيد .

د ـ إنهم في هذا السبيل أرادوا الخروج على التقاليد المشرقية المتّبعة هناك .

هـ ـ كثرة احتفالها بجمل الدعاء والاعتراض ، وتنويعها بين الشعر والنثر ، وميلها إلى الاطناب ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتضمنها الحوار والقصص ، وأسلوب السخرية والفكاهة ، وكانت الألفاظ المستعملة تعتمد السجع والازدواج والجناس .

2 ـ **من حيث المضمون :**

مالت الرسائل إلى نزعة الترادف والتكرار ، وكان في مقدمة تلك المعاني : المعتقدات ، والأفكار الإسلامية ، وتناولت مشكلات الحياة السياسية إذ كانت قوية الصلة بالحكام والأمراء ، وصوّرت المجتمع تصويرا دقيقا إلى حدٍّ بعيد ، وجاءت تحفل بقوة العاطفة في الرسائل الدينية والأخوية والوصفية .

أما **الرسائل الديوانية** : فكانت العاطفة فيها ضعيفة ، وكانت الأساليب المعتمدة في التعبير عن هذه المضامين : الخيال بما يتضمنه من تشبيه واستعارة وكناية وأساليب الطباق والمقابلة .

ومن أهم **الفنون النثرية** التي أبدع فيها الأندلسيون في هذا العصر :

**أدب المناظرات :** وهو من الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي في عهد مبكر فمن أمثلته المناظرة التي أجراها الجاحظ بين صاحب الكلب ، وصاحب الديك في كتابه الحيوان ، وأن له كتابا آخر هو **سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف** ، ولكن أدباء الأندلس كانوا بذلك أشهر ، وكان هذا اللون لديهم أكثر ؛ ولذلك ذكروا به ، وذكرهم بهم ، حتى نُسب إليهم دون سواهم .

وأشهر أدباء هذا العصر **أبو حفص بن برد** الذي عدّه د. السُّيوفي مخترع هذا الفن ، وأول من كتب في هذا الموضوع ، ووجد في مناظراته أنها تدل على سعة خيال الأديب ، وحسن ذوقه في انتقاء الألفاظ ، ونفاذ بصره بمواقع الكلام ، فضلا عن ميله إلى الأسلوب القصصي الذي لم يُعرف في الأدب المشرقي ، ذلك الأسلوب الذي افتُنّ به الأندلسيون ، فعُرف لهم في إطار المحاورات بين الورد والأزاهير ، وممن اشتهر في هذا الفن : **أبو عمر الباجي ، وأبو الوليد** **الحميري في كتابه البديع في وصف الربيع ،** إذ أجرى محاورات كثيرة بين الزهور ،وكذلك **أبو بكر الجزار السرقسطي الذي ألفّ كتاب : بادرة العصر وفائدة المصر ،** وجعله مناظرة بينهوبين خصمه **أبي الحسن البرجي ،**وقد وصل إلينا هذا الكتاب .

ويمكن أن تدخل **رسالة التوابع والزوابع** في باب المناظرات كذلك لوضوح هذا الاسلوب فيها .

**أنموذج من رسالة أبي حفص بن برد بن الأصغر ت 428هـ ، في المناظرة بين السيف والقلم .**

وقد جعلها رسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري ، وبعد أن يذكر ما تشابه من خصال ، وأنهما سُلّمَان لارتقاء المراتب ، وطريقان لنهج الشرف الرفيع وشفيعان لا يؤخر تشفيعهما انتقل إلى المناظرة بينهما :

فقال القلم : ها ، الله أكبر ! أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك ، ويحير جنانك ، وبديهة تملأ سمعك ، وتضيق ذرعك ، خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق والفضل من فضله الله عزّ وجلّ في تنزيله مقسماً به لرسوله فقال : " ن والقلم وما يسطرون " القلم / 1 وقال : " اقرأ وربك الأكرم الّذي علّم بالقلم " العلق / 4 ، فجلّ من مقسّم

، وعزّ من مقسم ، فما تراني ، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره ، وجلّت بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة ، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة ، لا أُسرّ ، ولكن أعلن **قيمةُ كل آمرئ بما يُحسن .** إن عاتقاً حمل نجادي لسعيد ، وإن عضداً بات وسادي ، وإن فتى اتخذني دليله لمهدي ، وإن امراً صيّرني رسوله لمفدي ، يشق الدُجى بمصباح ، ويقابل كل باب مفتاح ، أفصحُ والبطل قد خرس وابتسم ، والأجل قد عبس ، أقضي فلا أنصف ، وأمضي فلا أصرف ، أزري بالوفاء ، وأهتك الرداء " .

ومن أمثلة النثر في هذا العصر ما جاء في ديوان ابن خفاجة الأندلسي في صفة متنزه :

" ولما أكب الغمام إكباباً لم نجد معه إغباباً ، واتصل المطر اتصالا ، لم نلف معه انفصالا ، ثم أذن الله تعالى للصحو أن يُطلع صفحته ، وينش صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تحط نقابها ، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلّت ، وقد تحلّت ، ذهبت في لُمة من أخواني نستبق إلى الراحة ركضاً ، ونطوي للتفرج أرضاً ... "

ولن يستطيع الباحث أن يغفل أشهر أعلام هذا العصر ابن زيدون الذي ترك لنا رسائل قليلة إلا أنها مشهورة :

1 : الرسالة الجدية .

2 : الرسالة الهزلية .

3 : رسالة إلى استاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من السجن مستشفعاً به ؛ لإصدار العفو عنه .

4 : رسالة للمظفر بن الأفطس في شفاعة صديق .

5 : ثلاث رسائل في التمهيد للرحيل إلى إشبيلية ، اثنتان للمعتضد بن عبّاد " العباديتين " والثالثة العامرية إلى أبي عامر بن مسلمة بإشبيلية .

**المحاضرة الخامسة عشّرة :**

**الرِّسالة الجديّة والهزلية لابن زيدون :**

حظيت هاتان الرسالتان بالقسط الوافر من عناية الدارسين والشُراح ، فقد شرح الرسالة الجديّة صلاح الدين الصّفدي " 764 هـ " بكتاب **تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون .**

وأما الرسالة الهزلية فقد شرحها ابن نباتة المصري " 768 هـ " في كتاب أسماه **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** على لسان ولاّدة إلى ابن عبدوس ، وتلتقي الرسالتان في جملة خصائص ومميزات من حيث الأسلوب :

1 ـ فيهما إطالة وإطناب والرسالة الجدية أقلّ إسهاباً وأكثر اتزاناً وتعقلا من الهزلية.

2 ـ فيهما صناعة لفظية معتمدة على السجع وازدواج العبارة ، ولقد بالغ في صنعته مما جعل د. شوقي ضيف يرى أن ذوقه في نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع في المشرق .

3 ـ وتشترك الرسالتان أيضاً في قوة الخيال ، وكونه عنصراً مهماً في التعبير والتصوير.

4 ـ وتشترك الرسالتان في الإكثار من استعمال الأمثال والحِكَم وذكر الأحداث التاريخية ، وذكر وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الحنيف .

وتمتاز الرسالة الجديّة بقوة العاطفة وعمقها ، إذ فيها تصوير حالة الشاعر ، فقد كان يرزح تحت وطأة السجن وينوء بآلامه وشماتة الأعداء به ، وقد كتبها في السجن ووجها إلى الأمير أبي الحزم بن جهور .

إن ابن زيدون في أسلوبه هذا متأثر بطريقة ابن العميد " 360 هـ " ومدرسته التي تعتمد السجع والازدواج منهجا وهو متأثر برسالة التربيع والتدوير للجاحظ في رسالته الهزلية .

**من رسالة ابن زيدون الجديّة** ، يقول فيها :

(( يامولاي حدّ العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، إن سلبتني ـ أعزك الله ـ لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى إيناسك ، , وأظمأتني إلى برود إسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحسّ الجماد باستحمادي إليك ، فلا غرو قد يغصّ بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ... )).

**ويقول في رسالته الهزلية :**

(( أما بعد : أيُّها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى في شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنّك راسلتني مستهديا من صلتي ، ما صغرت منه أيدي أمثالك متصديا منى خلتي لما قُرعت دونه صنوف أشكالك ...))

**شعر ابن زيدون**

**حياته :** تنقسم حياة ابن زيدوه أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومـي ، إلى حقبتين هامتـين .الحقبة الأولى وتبدأ بولادته سنة 394 هـ / 1003م وتنتهــي بقـيام دولـة بني جهــور سنــة 422 هـ /1031م أما الحقبة الثانيـة فهـي التي عاشها في كنف بني جهور و بني عبـاد .  
ولد في قرطبة ، زمن الدولة العامـرية ، من قبيلة بني مخزوم القرشية التي جـاء بعـض رجالاتها مع الفتح الإسلامي ، فساندوا الحكم الأموي .كان والده قاضياً فقيها على المذهب المالــكي (( واسـع الثقافة ، غزير العلم ، مشهوراً بالبلاغة ، معروفاً بمكارم الأخلاق ، وكـان على حظ وافرمن الثراء أتاح له ـ مع علمه وخلقه و فصاحته ـ أن يكون ذا شأن في بـلده ، وكان معدودا في علّية القوم .)) و كلّ هذا انعكس على طفولة ابن زيدون ، و إن كان قد تلقى حظاً وافراً مـن علوم عصره على يد علماء و فقهاء قرطبة. فـدرس اللّغة ، و الأدب ، والشّعـر ، والتّاريـخ ، و السّير… فساعده كلّ ذلك على ذيوع صيته و شهرته . حيث قرض الشّعر ، و نبغ فيه ، و هو في الـعشرين من عمـره .

**بيـئـتـه السيـاسيــة :**  
 لاشك أن ابن زيدون ، عـايش فترة عصيبة في السياسة الأندلسية .إذ انتقـل الحكـم من الأمويين إلى ملـوك الطوائف ، فمزّق أيّ ممزق بين زعماء و قـادة ، كلّ استقل بإقليم جعل منه دولة و جيشاً ، و حدّد حدوداً ، و نظّم نظـاماً ، ومن ذلك :   
ـ الدّولة الزّيريـة في غرنـاطـة ( 403هـ / 483هـ ) ـ (1011 م / 1089 م)  
ـ الدولة الحمودية في قرطبة ومالقة (407 هـ / 450 هـ ) ـ (1015 م / 1057 م)  
ـ الدولة الـهودية في سرقسطـة ( 410 هـ / 536 هـ ) ـ ( 1018 م / 1140 م (  
ـ الدولة العامريـة في بلنسيــة ( 412 هـ / 478 هـ ) ـ ( 1020 م / 1085 م(  
ـ الدولة العباديـة في إشبيلـيـة ( 414 هـ / 484 هـ ) ـ ( 1022 م / 1091 م (  
ـ دولـة بني الأفطس في بطليوس ( 421 هـ / 487هـ ) ـ ( 1029 م / 1094 م (  
ـ الدولـة الجهورية في قرطبــة ( 423 هـ / 461 هـ ) ـ ( 1031 م / 1069 م(  
ـ دولـة ذي النون في طليطلـة ( 427 هـ / 487 هـ ) ـ ( 1035 م / 1094 م (   
  
و في ظرف عـقدين من الـزّمن ، كانت الأندلس قـد جزّئت ، دويلات متنـاحرة . يتربص بها عدو مشترك ، بل يفرض على بعضها الجزية و تعطيهـا في ذلّ و صغار …و قد واكب ابن زيدون عملية الجزية ، إذ كان عمره ثلاث عشْرة سنة ، مع قيام الدولة الزيريـة ، و أصبـح عمره ثلاثاً و ثلاثين سنة ، مع قيام دولة ذي النّون ، في طليطلــة . و إن كان يهمنا من هذه الدول، دولتـين : الدّولة العبّادية ، والدّولة الجهورية. إذ كان عمر ابن زيدون مع قيام الدولة العبادية عشرين سنة.و مع قيـام الدّولـة الجهورية ، كان تسعاً وعشرين سنة .فبنو جهور : عرب حكموا قرطبة . زعيمهم : جهور بن محمـد ( ت 435هـ / 1043 م ) و هو من وزراء بني عامر ، استحوذ على قرطبة ، بعد انهيار الدولة الأمويـة .  
أمّا بنو عباد ، فهم أيضاً عرب ، أسّس دولتهم : أبو القاسم محمد بن عبّاد . الذي كان قاضياً بإشبيلية ، و استمرّت إلى عهد المعتمد بن عبّاد ، حيث قضى عليها المرابطون في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف بن تاشفين .و في خضم هذا الشّتات ، و التّمزيق ، و الصّراعات ، و الثّورات ، و الفتن ، و الانقلابات السياسية … التي أعـقبت وفاة الحكم المستنصر … وما تلا ذلك من صراع على السلطة بين دويلة وأخرى ، و فرق إثنية كالعرب ، و غير العرب ، و ا لمسلمين و غير المسلمين ، و البرابرة ، و الصقالبة و المولديـن وغير المولديـن …  
الشيء الذي جعل ابن زيدون ينغمس في عمق التيار ، فيجرفه بعيداً ، ليصبح طرفاً في الصراع . بلْ له الفضل في الثّورة على الأمويين ، وقد أفلّ نجمهم . و معاضدة الثائرين ، من بني جهور ، و بني عباد ، و قد شعّ بريـقهم ، و خفـقتْ بيـارقهم . و لكنّ دروب السياسة وعرة ، و غير آمنة . فلـقد قادت ابن زيدون إلى الوزارة في عهد أبي الحزم بن جهور ، جزاء ما قدمه للدولة الفتية . و لكن الأحداث و الوشاة ، ساقت ابن زيدون إلى غياهب السّجن ، بتهمة التــآمر على النظـام … وقـدْ تمـكن من الـفرار ، و هام على وجهه ، يختـفي هنا و هناك.إلى أن مات أبو الـحزم ، وخلفه ابنه الوليد ، فظفر عنده بأعلى مكانة . إلا أن أيام السعد لم تدم طويلاً .إذ أحسّ أنّ الوشاة ـ ومـن جديد ـ قد أفسدوا ما كان بينه و بين الوليد . ففرّ إلى ا لمعتـضد بإشبيلية ، ولازمه غير أن الوشــاة أعادوا الكرّة ـ حسداً ـ ولكنّهم لم يـفلحوا . و لما مات المعتضد ، أعادوا أساليـب الوشايـة ـ حـقداً وضغينة ـ لما أصبح يتمتع به من حظوة عند ا لمعتمد بن عباد . غير أن هذا الأخـير لم يعبـأ بـهم ، بل وقرعهم أشد تـقريع .و مكث ابن زيدون في رفـقة المعتمد ، ونـار الحسد متأججـة حوله حـتى أدركتـه الوفاة ، وهو في مهمة في إشبيلية ، لتهدئـة الأوضاع هناك . فـقام بـها أحسن قيام ، رغم المرض ، و الحمّى … و هو يدرك أن حساده ، هم الذين أوزعوا للمعتمد إرسالـه إلى إشبيلية، قصد إبعاده . فلم يرحموا شيخوخته ، و مرضه ، ولم يكن ليخالف للمعتمـد طلبـا . فاشتـدت به الحـمـى ، وأنهكه السّقم ، فمات في الخامس عشرة من رجب سنـة ثلاث و ستين و أربعمائة هجريـة . فحـزن لموتـه أهل إشبيلية ، و دفن فيها . ولما وصل نعيه إلى قرطبة ، عمّها حـزن شـديد... ورغم ذلك : (( سوف يـظل ابن زيدون من قبل ، ومن بعد ، مـن الجديد الذي لا يبلى ، و الـغصن الذي لا يذبـل )) 

**بيئتـه الاجـتـماعيـة :** إنَّ المجتمع الأندلسي على عهد ابن زيدون ، كان خليطا من الأجناس ، و الإثنيات التي تشكـل فسيفساء غير متجانسة . رغم كل المحاولات اليائسة في جـعل المجتمع الأندلسي ، ينصهر في بوتـقة واحدة .فمنهم العرب الوافدون مع موسى بن نصير ، و ما تلاه من وفـود الفتح القـادمة مــن المشرق العربي . و كانت لهم سلطة الحكم ، وحظوة الاقتصاد و ا لمال . و هناك الأسالـمة ، و هم الأسبان الذين أسلموا ، إمّا عن اقتناع ، أو مدارات للـمسلمين ، حتى يحافظوا على مصالحهم . ثم هناك المولدون ، و هم من ولدوا لأباء من الأسبان ، وكانوا جميعاً يشتغلون بالزّراعة ، و التّجارة ، و الصّناعة. أمّا العرب أو غير العرب ، فكانت تستقطبهم مهنة الطب ، و الصيدلة ، والمعاملات المالية . ثم هناك الصقالبة ، و هم أجناس غير إسبانية كالإطاليين والجرمانيين ، و الفرنسيين ، و غيرهـم من جزر ا لبحر الأبيض المتوسط . وكانت لهم مراكز هامـة في المجتمع و السياسة و الجيش … و كان لهم دور بارز في تدبير ا لمؤامرات و الانقلابات ، ثم هناك الأمازيغ ، من شمال إفريقيا الذين دخلوا الأندلس مع الفاتحين العرب ، و كانوا يشكلـون الأكثرية من ا لمسلمين .و لعلّ هذا التجمع من الأجناس المختلفة و ما شاع بينهم من زواج و اختلاط أفرز عدة معطيات : كاللَّهو، والمجون ، و الغناء و الاهتمام بالفتنة ، و التأنق ، والجمال ، والاهتمام بالعمارة ، والصناعة ، والزراعة و كثرة الجواري و القيان ، و كثرة الشّراب ، و تحرر المرأة ، و التّسامح ، و البعد عن التّعصب ، و الاعتناء بالنّظافة ، و الأزيـاء ، و الموسيقـى   
  
**بيـئتـه الـفكريـة و الأدبـيـة :**   
  
 رغم أن عصر ملوك الطوائف ، كان عصر صراعات و اقتتال . فإنه أيضاً ، كان عصر علم ، و فكر، و أدب . إذ كان يتوافد على إسبانيا المسلمـة طلبة من مختلف الأصقاع الأوروبية لدراسة فكر أرسطو باللّغة العربية . في حين كان معظم الناس في الأندلس يقرؤون ، و يكتبون ، على عكس غيرهم في أوروبا ، حيث كان ظـلام الجهـل ، جاثمـاً منتشراً …  
فقد اعتنى الأندلسيون ببناء المساجد ، و كانت للعبادة و الدرس و التّحصيل .كما اهتموا بتعليم البنات ، والبنين ، فشادوا المدارس ، والمعاهد. فحسبنا ـ في ذلك العهد ـ أن قرطبـة كانـت تضم ثمانين مدرسة عامـَّة .  
و لقد اهتم الأندلسيون بعلوم الدين ، اهتماماً بالغاً . كما اهتموا بعلوم اللّغـة ، و ضـروب الأدب . و انصرف بعضهم إلى الطب ، و الفلك ، و الهندسة .و برعوا في تلك الميادين ، و آثارهم تدل علـى ذلك … و إنْ كان اهتمامهم بالفلسفة ضئيلاً . لما حيك حول الفلسفة و الفلاسفة من شبهات ، أدت إلى إحراق كتبهم . غير أن ذلك لم يدمْ طويلا . إذ شهد عهد ملوك الطوائف ، و ما تـلاه ، بـوادر الاهتمام بالفلسفة . و قد برز من أعلام هذا العصر ، ابن حزم المتوفى 456 هـ و الذي بلغت مؤلفاتـه أربعمائة مجلد:في الفقه ، و الحديث ، و الجدل ، و النسب ، و المنطق ،و الفلسفة، و الشعر… ومـن أشهر كتبه : طوق الحمامة ، و الفصـل في الملل و النحل . و من أعلام العصر أيضـاً ، ابـن سيده المتوفى سنة 458 هـ صاحب المخصص و المحكم . و من المؤرخين ابن حيان ، المتوفى سنة 469 هـ و من كتبه : المبين ( في ستين مجلدا ) . و من أشهر الأدباء : المظفر بن الأفطس ، حاكم بطليوس المتوفى سنة 460 هـ و كتابه المظـفري ( في خمسين مجلدا )   
أما في الطب ، فقد نبغ الزهراوي المتوفى سنة 500 هـ و كتابه التصريف لمن عجز عن التأليف ، الذي ظل مرجعاً لأوروبا منذ أن ترجم للاتينية في القرن الخامس عشر . و من كتاب التراجم ، ابن بسام ، و كتابه الذخيرة . و من العلماء ابن بشكوان ، وكتابه الصلة ، و ابن الأبار ، و كتابه التكملة … هذا فضلاً عن العناية بالمكتبات الخاصة ، و اقتناء الكتب من مختلف الأصقاع ، و الاهتمام بالمكتبات العامة التي أنشأها الخلفاء الأمويون لعامة الناس . فقد أنشأ الحكم مكتبة في قرطبة،عدد كتبها أربعمائة ألف مجلد وكتاب ، و يقال إنّ في غر ناطة وحدهـا كانت سبعون مكتبـة .   
و قد ألف الأندلسيون الأدباء ، الـتقليد ، و المحافظة ، ردحاً من الزمن . غير أنّـهم في عصر ملوك الطوائف بدءوا يتحررون قليلاً من ذلك .ظهر في شعرهم و نثرهم … ولم تعد تلك الصّلة الوطيدة بالمشرق العربي ، إذ عمدوا إلى الخلق و الإبتكـار و التّجديد فنظموا الأراجيز التاريخيـة ، و الأدب القصصي ، و الموشحات ، و الرحلة الخيالية ، (التوابع والزوابع ) لابن شهيد ، و الأزجال ، و وصف الطبيعة ، الذي اشتهر بـه الكثير مثـل ابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن حمديس …   
و قد استفاد ابن زيدون من أعلام عصره ، إذ تتلمذ في الـفقه على يد والده ، القاضي أبي بكر عبد الله ، و لما مات ، و ابن زيدون في سنته الحادية عشر’ كفله جده لأمـه ، القاضي أبو بكر فـعلّمه من علمـه الشّيء الكثـير . وأخذ اللّغة ، و الأدب على يد أبي العباس بن ذكوان ، و أبي بكر أفلح … حتى أمسى شاعر الأندلس ، بفضل علمه ودراسته ، و موهبتـه و اجتهـاده

.  
**علاقة ابن زيــدون العاطفية  :** إنّ ابن زيدوه عاش قصة حبّ فريدة ، شحذت خياله الفني ، و أثرت في إبداعه و خياله و شعره . لقد شغف حباً بولادة بنت المستكفي ، آخر خلفاء بني أمية في قرطبة .كانت أديبة شاعرة . لـها ناد لرواد العلم ، و الأدب ، وكانت على حظ كبير من الجمال …فكتب عنها أجمل القصائد . قال غراسية غوميس في القصيدة النونية لابن زيدون بأنـها : (( أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون ، وغـرة من غـرر الأدب العـربي كله)) و يقـول صاحـب ( الـدر ا لمنثـور …) عـن ولادة بأنها ( كانت نهاية في الأدب و الظـرف ، و كـان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصــر ، و فناؤها ملعباً لجياد النظم و النثر . و قيل إنها في المغرب كعلية ابنة المهدي العبـاسي بالمشرق . إلا أنّ ولادة تزيد بمزية الحسن ، وأمّا الأدب و الشّعر و النّوادر و خفّـة الرّوح فـلمْ تكن تـقصر عنهـا ، وكـانت لها صنـعة في الـغناء ، و لها نوادر كثـيرة مع الأدباء و الشعراء .)) فحين تقرب منها ابن زيدون بادلته حباً بحـب ، قبل أن يظهـر ابن عبدوس في حياتهما ، إذ استطاع أن يستولي على قلب ولادة ، مسـتغلا ًظروفاً سياسية ، شارك فيها ابن زيدون مع ابن جهور ضدّ خلافة بني أمية المهترئة ، الشيء الذي جعـل ولادة تميل إلى ابن عبدوس . الذي لم تجد فيه ما كان لها في ابن زيدون .ولكـن ، كلّ ذلك ترك أثـراً عميقـاً في نفس ابن زيدون . تبلور في شكل قصائد عتاب و لوم … و تذكـير بمـا مضى …  
ج ـ ديـوان ابن زيـدون :  
  
لابن زيدون ديوان كبير ، اهتــم له العلماء و الأدباء اهتماماً خاصاً . لـما وجدوا فيـه من انعكاس خالص للحياة في الأندلس أيام ملـوك الطوائف . ولحسن الطالــع وُجدت للديـوان عـدة مخطوطات، سواء في دار الكتب المصرية ، أو في المكتبـة التيموريـة ، أوفي المكتبـة الأزهرية . و قد قام المستشرق هيرت hirt سنة 1777 بنشــر قصائد منه كما قام المستشرق أوغوست كور A. Cour ، بنشر مجموعة من القصائد سنة 1920 وفي سنة 1932 طبعت شركة مطبعة ومكتبة مصطفى البـابي الحلبي بمصر ، ديوان ابن زيدون طبعته الأولى وقد حققها وشرحها كامل كيلاني و عبدالرحمن خليفة وفي سنة 1951 طبع الديوان في بيروت بتحقيق وشرح كــرم البستاني .   
في سنة 1957 ظهرت طبعته الجيدة ، وهي بتحقيق وشرح الأستـاذ علي عبـد العظيم . و في سنة 1965 ظهرت في مصر أيضاً طبعة أخرى للديوان بتحقيق وشـرح الأستاذ محمد سيد كيلاني ثم ظهر الديوان بحلة جديدة ، بتحقيق الأستاذ حنا الفاخوري سنة 1410هـ/ 1990 م عن دار الجيل ببيروت . وفي سنة 1996 ظهرت طبعة جديدة بدار الفكر العربي ببيروت شرح و تحقيق الأستاذ عباس إبراهيم . وفي سلسلـة ( شعراؤنـا ) ظهرت طبعة بشرح الدكتـور يوسف فرحات، عن دار الكتاب العربي.   
و لـقد تبين أن الديوان ـ من خلال شروحه و عمليات تحقيقه ـ لم يصل سالمـاً من التّحريف . إذ ورد في مـقدمة ( ديوان ابن زيدون رسائله ، أخباره ،شعر الملكـين ) ما يلـي : (( ولقد كنا نقرأ القصيدة مرات ، و كأننا ـ لشدة ما فيها من تحريف و اضطراب ـ أمام طلسم غامض لا سبيل إلى حلّه … و ما نزعم أننا قد برأنا هذا الديوان من كلّ عيب ، و نزهناه من كلّ تحريف،و لكننا نـجرؤ ونزعم أننا لم نأل جهداً في تبرئته من كلّ عيب.و تنزيهه عن كلّ تحريف)) ثم يأتي المحققان بأمثلـة للتحريف . وتكملة بعض الأبيات الناقصة بما يلائمها . و قـد فعـل ذلك أيضاً الأستـاذ علي عبد العظيم في تحقيقه للديوان ، إذ يقـول : (( أما الديوان فليس عندنا ما يثبت أنه جمعه بنفسه ، أو أنّ أحداً جمعه في عصره . و إنْ كـان أوغوست كور A COUR يذكــر أنَّ معاصـري الشاعر جمعـوا ديوانه ، و بخاصة ابن حيان … ولم نجـد في المراجع التي عنيت بتسجيل الكتب أي إشارة إلى الديوان .و أول خبر يصلنا عن ديوان الشّاعر ما ذكره ابن نباتة المتـوفى سنة 768 هـ من أنّـه وقـف على ديوان شعر لابن زيدون و على كثير من ترسله )) .

**قصيدة : أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانِينَا**

أضْحَى التّنائي بَديلاً عنْ تَدانِينَا، وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا

ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعيِنَا

مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ، حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلينَا

أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنا أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهوَى فدعَوْا بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدهر آمينَا

فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأَنْفُسِنَا؛ وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا

وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا، فاليومَ نحنُ، ومَا يُرْجى تَلاقينَا

يا ليتَ شعرِي، ولم نُعتِبْ أعاديَكم، هَلْ نَالَ حَظّاً منَ العُتبَى أعادينَا

لم نعتقدْ بعدكمْ إلاّ الوفاء لكُمْ رَأياً، ولَمْ نَتَقلّدْ غَيرَهُ دِينَا

ما حقّنا أن تُقِرّوا عينَ ذي حَسَدٍ بِنا ، ولا أن تَسُرّوا كاشِحاً فِينَا

كُنّا نرَى اليَأسَ تُسْلِينا عَوَارِضُه، وَقَدْ يَئِسْنَا فَمَا لليأسِ يُغْرِينَا

بِنْتُم وَبِنّا، فَما ابتَلّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إلَيكُمْ، وَلا جَفّتْ مآقِينَا

نَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا، يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ سُوداً، وكانتْ بكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا